

المذياع الآدمي

للأستاذ عباس محمود العقاد

حالة غير نادرة

لكنها لو كانت الحالة الأولى من نوعها لجلت كما ذلك فلسفة حياة ونفثتها في ضباب الكون ، ورأيت الدنيا معها فردوساً سماوياً لا حدر فيه ولا انتهاء لمشاهده وممانيه ، وكنت في عليين ولا يفتنني أن أقول : كنت من المتفائلين

ولم تكن الحالة الأولى من نوعها فلهذا لم تكن فلسفة باقية بل كانت حالة طابرة غير نادرة ، واستطاعت النفس أن تحل زمامها وهي إلى جوارها فلا يزال فيها هامس مسموع مستجاب يرد في غير إلحاح ولا إعنات : كلا . لست في عليين ، لست في عليين !

أ إذا عرفنا أسباب الحالة الأولى جاز لنا أن نقول : إنعاشي ضلالة في الحس من أثر النيم أو من أثر السوء أو من أثر المدة الشاكية ؟

كلا . لأن معرفة السبب الذي يريك الشئ لن تنفي وجوده ، كما أن شعورك بأن الآخرين من أجل القرابة بينك وبينهم لا ينفي أنهم متألون وأن الألم موجود هناك . ثم تقترب من الحسومات فنقول إن رؤيتك الجرائم بالجمهور وعلمك بأن المجرم هو سبب الرؤية لا ينفي الجرائم ولا ينقص صحة ما تراه

وكذلك الحالة الثانية لا يدحضها أن تعلم أسبابها ، ردى الاشرار والصحة وامتناع الأكدار والأحزان ، فإن العلم بأسباب إحساس من الأحاسيس لا يقدح في حقيقته ولا في صواب الشعور به حيث كان .

لذلك أقول إن السريرة الآدمية كالمذياع ، وإن الدنيا المحزنة والدنيا المفرحة ودنيا الفنون ودنيا الرجا موجودة لا تظهر للنفس إلا حين يصل المفتاح إلى وجهته المرسومة ، وإلا فهي صمت وخفاء

في النفس الانسانية منزع لجميع انوارها ، ولكنها تنهأ لكل عالم من هذه انوارها بحالة من الحالات ، أو بمفتاح من المفاتيح ، فإذا هو موجود مسموع منظور محسوس ، وإذا أنت لا تسمع غيره ولا تمش في غيره ، لأن إدارة المفاتيح كلها هي الفوضى التي يبط فيها الاحساس ، وبفسد فيها التفسير المفهوم ، فهو إذن لفظ وأصداء

حالة نفسية غير نادرة ، ولا سيما في الأيام الفاتمة أو الماطرة . على الأفق البعيد رباب مسف جاثم ، وفي الجو شوب من ضباب كالنبار يحجب صفاء السماء ، والأشجار هنا وهناك كأنما تتواري من الناس ، وعلى للنفس سكرة قائمة لا تتحرك كأنها فرغت من النقاش والسؤال عن الأسباب ، وخلعت إلى اليقين والفرار ، وكل شئ حيث ... وكل عمل عقيم . . . رداءة الدنيا الفاتمة بالباطل ، وما هذا العناء في غير طائل ؟ باطل الأباطيل ... قبض الريح ... متاع الفرور !

حالة غير نادرة

لكنها لو كانت الحالة الأولى من نوعها لجلت فلسفة حياة وصفت بها وجه للكون ، وبسطتها على الدنيا ، أو قبضت الدنيا حتى انطوت فيها ، وكنت من المتشائمين

لم تكن الحالة الأولى من نوعها ، فلهذا لم تكن فائدة باقية ، بل كانت حالة طابرة غير نادرة ، واستطاعت النفس أن تتزع منها زاوية صغيرة يهمس فيها هامس مسموع مستجاب : كلا ! ليست الدنيا كذلك . ليست الدنيا كذلك ... إنعاشي نوبة نزول ، وركود راحة بعد جهاد ، أو ركود استجمام قبل ونوب

وحالة أخرى غير نادرة ، ولا سيما في أيام الاشرار والنضرة والاقبال ، صيفا كانت أو شتاء ، وريما كانت أو خريفا . فهي شائعة موزعة بين جميع المواسم والفصول

لمسة الشماع على الصخرة الملقاة تبث للفرح من أعماق السريرة ، ودرجفة الورقة على للنفس رقص وانتشاء ، ومشية السرعة استطاراة سرور ، وعشى الثأني فكأنه يتملى منمة الشئ ويستوفي منمة الرياضة ، ومنظر الشجرة كأنها باقة تنطلق في السماء ، وليست بالجامعة للقيدة بالغباء ، وكل شئ يحسن كما هو في غير حاجة إلى تفسير أو عاقبة منظورة ، وليس في الامكان أبدع مما كان

إن كنت تسمع حديث القاهرة فليس معنى هذا أن حديث باريس باطل ، وإنما معناه أن المفتاح في هذا الاتجاه وليس في اتجاه غيره ، وحديث باريس بعد ذلك صادق عند أناس آخرين صدق حديث القاهرة ، وغيره من الأحاديث

وإن كنت في دنيا من دنياوات الأقبال والتفاؤل فليس معنى ذلك أن دنيا لئسامة والقنوط عدم وضلال ، وإنما معناه أن المفتاح هنا ، وأنه لو تحول قليلاً لأصبح هناك !!

امتناع الحس لا يدل على امتناع المحسوس

وبهذا نفسر المبقرية التي ترى الأخيلة والشكول والماني والتوفيقات حيث لا يبصرها أحد ولا يسمعها أحد ولا يدري بها أحد ، ولكنها تظل في صمتها وخفائها حتى تصادف من يدري بها ويستمتع إليها ، فهي موجودة له ممدومة لسواء

وبهذا نفسر للصوفية التي تلمح من الخفايا ما ليس بلوحه المصابون والجيران ، وتقرب من الآمال والمخاوف قبل أن يقترب منها الزاملون والرفقاء ، وتبصر بمبني « حزام » والناس من حولها ضاحكون لا يصدقون ، وإن قال لهم ألف قائل :

إذا قالت حزام فصدتوها فان القول ما قالت حزام

لأن ما يرى بالعين على مسيرة يوم سوف يرى بالعين على مسيرة ساعة . أما ما يرى بالسريرة فقد تكثر فيه المغالطة والكثرة كلما اقترب واقترب حتى تتناول جميع السرائر : أحذا الذي أنبأنا به !! لا . إنك أنبأنا بشير هذا ، ولن تزال في ضلالك القديم !!

ولهيطة من المبقرية والصوفية إلى المشاهد الملموسة في حياة الحيوان .

فأين من الناس من يشعر بأن ملامسة اليد للتندبل تترك فيه أثرًا من الرائحة المحسوسة يشمها الأنف بعد أيام ؟ وأين من يثبت لهم ذلك لولا أن شاهدوه وكرروا شهوده من بعض الحيوان !!

أفينقض « وجود » تلك الرائحة أن يقول قائل : بل ما أدركها ذلك الحيوان إلا لأنه كلب يشم بحاسة الكلاب ؟

أفينقض « وجود » تلك الماني والتوفيقات أن يقول قائل :

بل ما أدركها ذلك الناظم أو ذلك الموسيق إلا لأنه مجنون مجبول ؟

فلم لا يكون الخجل المزعوم هو المفتاح الذي يوجه السريرة إلى وجهة تلك الماني والتوفيقات ؟ ولم ننكر « المحطة » لأننا لا نملك المفتاح وإن رأينا من يحسها ويروي لنا ألقائها وأما شهادتها في تناسب وانتظام ؟

فالعالم حافل بما يحس ويشعر

حافل بالمنظورات وإن لم يشهد بها كل نظر ، وحافل بالمسموعات وإن لم تسمعها كل أذن ، وحافل بالطعوم وإن لم يذوقها كل لسان ، وحافل بالحياة وإن لم تتصل بها اتصال التعاطف والتفاهم كل حياة فلم لا تقول على هذا التراس إن حافل بالماني ، وحافل بالمدركات ، وحافل بالوحي والتعبير ، وإن المبقرية له حاسة في الروح تلتقط هاتيك الماني والمدركات من حيث لا يحلم أحد بموقعها هناك ؟ ؟

لم لانفهم أن المحسوسات الذهنية التي تتناولها المبقرية لن تنفذ بالنقاط الأذهان منها لأنها ليست بأجسام ، وأن الشيء الذي ليست له مادة تنفذ لن يرى على وضع واحد بل يرى على ألوف الألوف من الأوضاع حسب من ينظرون إليه وينفذون فيه ؟

لم لانكون الدنيا مفرجة محزنة ، حائلة ظالمة، منظومة مشتتة، لأن هذه الماني لا تتناقض في عالم الإلهام كما تتناقض السوداء والبيضاء في عالم الصيان ، وإنما يصعب التوفيق بينهما في الإلهام واحدًا يصعب التوفيق بين مفاتيح المذيع ، فنخرج إذا أدراكها جميعا من الفهم والنظام ، إلى أصداء لا تقبل الفهم ولا النظام ؟

إذا صرت في حالة عابرة إلى جانب الحزن والقنوط قلت هي حالة صادقة في مفتاحها

وإذا صرت في حالة عابرة إلى جانب الفرح والرجاء قلت هي أيضا حالة صادقة في مفتاحها

ولم أقل إن الصائم السرمدي ينحصر في هذه أو في تلك ، ولكني أتلقى درسًا من الفيلج وأؤمن بأن السريرة الانسانية أكبر — على الأقل — من صندوق الكهرباء ، وإن عالم الإدراك أكبر — على الأقل — من مراكز الاذاعة ، وأن الوصلة بين الطرفين أكثر على الأقل من الموجات للقصار والوسطى والطوال .

هياس محمد النجار